أمين الريحاني

للمستشرق السوفياتي كراتشكوفسكي

في صباح يوم جميل من ايام ربيع سورية الباكر (١) من سنة ١٩١٠ كنت جالسا في مكتب صغير لصديقي جورج عطية محرر جريدة المراقب البيروتية . كنت احب تلك الزاوية الهادئة في سوق مارجرجس القليل الحركة ، وكنت اغتنم كل فرصة تسنح فايمم ذاك المكتب ، مارا بالازقة التي اعرفها ، ومتيقنا ان صديقي سيرحب بي خير ترحيب .

وكنا ونحن نرشف القهوة التي تقدم للزائرين حسب العادة الشرقية لدى وصولهم ، نتجاذب اطراف الحديث ، وكلانا مسترسل فيه ، الى ان يضطر صديقي ان يقفل مكتبه ليذهب الى قرية في ضواحي بيروت كان مقيما فيها .

ان تلك المكاتب الصغيرة ـ ادارات الجرائد ـ لخير ما يختاره الغريب الراغب في مراقبة الحياة العربية على انواعها ، ذلك لان الناس من مختلف الطبقات في الهيئة الاجتماعية يرون من واجباتهم ان يؤموا ادارة الجريدة ولو للسلام .

ولكنهم يؤمونها لشتى الاغراض . فانك تجتمع هناك بالفلاح اللبناني مثلا الذي جاء يشكو شيخ قريته او الراهب الحانق على رئيسه والذي يذكرنا في مشاغباته بما رواه غوغول (٢) عن النزاع الدائم بين ايفان ايفانوفيتش وايفان فيكيفوروفيتش (٣) وهناك المهاجر الذي يعود من اميركة فهو يهرول الى ادارة الجريدة ليطلع دفعة واحدة على اخبار بلاده . ناهيك بحملة الاقلام والشعراء الذين يترددون الى هذه المكاتب اكثر من سواهم .

وما مر ذاك الصباح دون زائر يزور مكتب الجريدة . فقد دخل علينا رجل كنت اجهله من قبل . هو أحد اصدقاء المحرر الكثيرين ولكنه غريب الشكل في ظاهره ، يلبس بدل الطربوش قبعة من الجوخ الناعم تدل على انه اقام مدة طويلة في بلاد الغرب . وفي سيماء وجهه الاحمر الشاحب ما يدل على التواضع ، وما وراء ذاك التواضع من شخصية هادئة بعيدة القرار .

ان مثل هذه الشخصية تندر اجمالا في ابناء العرب وهم في طباعهم اميل الى التبسط في الحديث ، والاكثار في الافصاح ، ويشفعون فوق ذلك كلامهم بالحركات والاشارات .

وقد كان يبرق في عيني الزائر السوداويتين الفائرتين شيء من الالم لا يخفى لاول نظرة على أحد ، هو الم كان يقاسيه في تلك الايام من مرض عصبي في يده اليمنى كان يشلها .

عندما دخل هذا الزائر ، ورأى في المكتب رجلا غريبا بادرنا الكلام باللغة الانكليزية اكراما للغريب . وقد بدا لي في نبرات صوته ان ما يحسن من تلك اللغة يفوق العلوم المدرسية . بيد اني اسرعت فحولت الحديث الى اللغة العربية ـ هي طريقة كنت اتخذها لاتخلص من مجاملات التعارف ـ فخضنا توا الموضوع الذي كان يشغل وقتئذ جميع الناس. وما الموضوع غير الدستور العثماني وما تبعه من الانقلابات ومن الحركات الرجعية .

في تلك الايام ، ايام تبلبلت الاحوال وخابت الامال ، تأكد العرب ان الامة العربية لن تنال ما كانت تتوق اليه ، وتطالب به حزب تركيا الفتاة . وقد كنت اصغي الى كل ما يقال في الموضوع في الاجتماعات العمومية والخصوصية واتتبع ما تكتبه الجرائد المحلية .

اما حديث الزائر الجديد فقد كان منبها ومؤثرا اكثر من شكله الظاهر . اذ ان اقواله دلت على تفكير عميق . ولم تكن افكاره لتنحصر في السطحيات شان خطباء العرب غالبا .

وكان حديثه بعيدا كذلك عن التطرف والتحزب ، مجردا عن الحدة ، خلافا لما كان مستحوذا يومئذ على الناس . فلم ينتقد الحكومة وحدها بل اشرك معها الامة وخصوصا الطبقة الراقية فيها . وقد قال في اثناء الحديث : « ما افسدته القرون الكثيرة لا تصلحه في سنوات قليلة الاصلاحات التي تجيء من العرش او مما حوله ـ من عل » .

ثم قال وقد بدت في وجهه امارة الحزن الشديد : ومما يزيدنا اسفا ان الهيئة الاجتماعية التي ترى لا تدرك الغث من السمين ولا تقدر من يسير امامها منزها عن الاغراض الشخصية وغير متحزب لحزب من الاحزاب » .

ثم ابتسم وقال : اما انا فالكلمة التي اتخذتها شعاري هي : قل كلمتك وامش .

ذكرتني هذه الكلمة بشيء قرأته قريب العهد . وبما اني عند التعرف لم اسمع جيدا اسم الزائر سألت صديقي عنه عندما ذهب فاجاب مختصرا : هذا امين . كذلك كان يعرف الى اصدقاءه مكتفيا بالاسم الاول .

فقلت : واي امين ؟ فاجاب فورا : امين الريحاني .

الريحاني . اعرف جيدا هذا الاسم ، فقد كنت اقرأه في الجرائد العربية في السنتين الاخيرتين . وكنت اعرفه خصوصا من المناظرات الشديدة التي كانت تدور حوله وتحتدم نيرانها في صحافة بيروت في تلك الايام .

بل كنت اترقب بشغف لا مزيد عليه سير تلك المناظرة وفيها الفريقان المتعاديان يتطاحنان . وقد تملك البغض والغضب من كليهما فيظهران الواحد على الاخر في اشد مظاهر العداء ، وكلاهما واحد في الاعجاب والانكار لا حد لما يصف ولا قيد لما يقول . فبينما كنت اقرأ والابتسامة علي شفتي ـ مقالة يعظم فيها الريحاني ويدعى بفيلسوف الفريكة ، كانت تجيئني جرائد الفريق الاخر وفي مقدمتها جريدة الاباء اليسوعيين ، وفيها كلها اعمدة من القذف بالريحاني فقد كانوا يلقبونه باقبح الالقاب. وقد دعته احدى تلك الجرائد « بالكافر المنتن الذي نبذه الغرب » وكثيرا ما كانوا ينعتونه بالماسوني وهو نعت في الشرق ينعتون به احرار الفكر من الناس ، كما كان ينعت الاحرار عندنا في روسية في اوائل القرن التاسع عشر باشياع فولتير.

بعد ان تعرفت الى الريحاني احببت ان اتفحص جيدا تلك المناظرة الصحفية فباشرت منذ ذاك الحين درس مؤلفاته درسا مدققا . ومن حسن

---

(١) كتبت هذه المقدمة في لننغراد (يومئذ بتروغراد) حيث الربيع يتأخر عادة الى شهر ايار .

(٢) غوغول ـ كاتب مجوني نبغ في روسية في اوائل القرن الماضي له كلمة مأثورة حفرت على قبره وهي : « خلال دموعي ترى ابتسامي ».

(٣) قصة هزلية من قصص غوغول طافحة بالمجادلات العقيمة بين شخصين متشابهين حقيقة ومعنى مختلفين روحا وادراكا . وفيها صورة حقيقية لما كان يحدث في روسيا الوسطى بين معاصري غوغول من النزاع في سطحيات الامور والابتعاد عن جوهرها .

الحظ انه كان قد طبع في صيف سنة ١٩١٠ مجلدان كبيران يحويان اكثر ما كتبه في تلك الايام .

ولكن اجتماعنا الاول كان لسوء الحظ الاجتماع الاخير . فقد كنت مضطرا ان اغادر بيروت في شهر اذار سنة ١٩١٠ لارجع الى روسية في مطلع الصيف . كما اني علمت من الجرائد ان الريحاني غادر بيروت ايضا في ذلك الوقت ووجهته طبرية المعروفة بمياهها المعدنية ، قصد الاستشفاء بها من مرضه العصبي .

ثم سافر في تلك السنة الى انكلترا ومنها الى اميركا .

— ٢ —

جاء في ختام احدى مقالات الريحاني قوله : « ان في لبنان روحي، وفي باريس قلبي ، وفي نيويورك الان جسدي » وحقا انه ابن عالمين : اميركة وسورية . وهما يختلفان كل الاختلاف الواحد عن الاخر . الا انهما على صلة متينة ، بفضل المهاجرة العربية ، منذ سنة ١٨٧٠ .

رحل الريحاني من جبال لبنان في صباه فهاجر الى اميركا الشمالية التي اضحت وطنا ثانيا له ، ولم يمارس التجارة هناك كما يفعل اكثر المهاجرين اللبنانيين بل انصرف الى الاداب والكتابة والخطابة في اللغة الانكليزية فمكنه ذلك من درس الحياة الاميركية عن كثب درسا دقيقا . ومما يستحق الذكر ان مؤلفاته الاولى كتبت وطبعت باللغة الانكليزية . اما لغته العربية فلم يظهر فيها خطيبا لاول مرة قبل سنة ١٩٠١ وذلك تلبية لدعوة احدى الجمعيات السورية في نيويورك. وكان موضوع خطبته « التساهل الديني » . ان خطة الريحاني الاصلاحية تبدو لنا في هذه الخطبة باجلى بيان ، فقد كان يهتم للاداب والكمالات الشخصية اهتمامه للمسائل الاجتماعية . اما السياسة ، التي يحوم عليها اكثر كتاب العرب ، ويرغب القراء عموما فيها ، فلم يدن الريحاني منها ، ولا مال قلبه اليها.

ان امعانه في درس الحياة كشف له الستار عما في التمدن الاوروبي من الفساد . وقد بدت جليا سيئاته في ما كان يشاهده من الكبرياء والاثرة في ابناء ذاك التمدن ومن معاملتهم المنكرة للاجانب . ان الريحاني في مقالته : « على جسر بروكلن » ليخنع لذاك التمدن . اما في مقالاته الاخرى فهو يحمل ، وقد خلع الخنوع ، على ما في الحياة في بلاد « الحرية » من المتناقضات .

على ان روحه نفرت مما لامست ، وما اسعفته اعصابه على الاستمرار في تلك الغمرات . فاسرع « هاربا » الى الطبيعة العزيزة لديه ، فاقام في جوارها عدة سنين متنسكا كل التنسك . ومنذ ذاك الحين اخذ المسلك الجديد ، اي العود الى الطبيعة ، يبدو في مؤلفاته. وقد كتب في هذه المدة اجمل وابدع مقالاته ، ومنها في « العزلة » و « وادي الفريكة » وبعض الاشعار النثرية .

وقد كان في امكان الريحاني ، وهو رجل الفكر اكثر مما هو رجل العمل ، ان يعيش مدة طويلة تلك العيشة النسكية لو لم تدفعه الحقيقة الاجتماعية مرة ثانية الى مضمار الحياة . فان حوادث سنة ١٩٠٨ حملته على العمل ، فظهر امام الجمهور خطيبا وكاتبا ، يخطب في الاجتماعات العمومية في بيروت وغيرها من المدن ، ويكتب المقالات في الجرائد العربية المختلفة . على ان هذا الجهاد كان في نتيجته مثل جهاده في اميركة . ذلك لان السياسة كانت غريبة لديه وما استطاع ان يتعرف اليها ليكون من رجالها . وهو القائل بالعود الى الطبيعة والسالك المسلك الذي يدعو الناس اليه . بل كان مبدأه في الحياة الاجتماعية ينحصر في كلمة من كلماته وهي : « في اصلاح الفرد اصلاح الامة ، وفي تهذيب الشعب اصلاح الرؤساء والحكام » .

لم تكن هذه الاقوال النظرية لتكفي مطالب الزمان ، ولا ساعدت في معالجة الحوادث ، اضف الى ذلك تلك المناظرات الشديدة بين مريدي الريحاني واعدائه ، وما كان عليه هؤلاء من الحيرة واولئك من المكابرة ، فتدرك السر في تلاشي آماله الجديدة وفي ما تبعها من اليأس . ولا عجب ، فلم يكن في امكانه ان يحول الحياة في وطنه الى مجاري الحق. ففي مقالته « حول المساواة » اصوات رنانة تؤنب اولئك الزعماء المخدوعين الذين لا يرون الخلاص الا بالاصلاحات الخارجية على مثال الغرب . وفي مقالته « رجل الشعب » تتخلل هذه الاصوات دعوة غريبة في الحكم المطلق . مما يدلك على ما كان يساوره من القنوط الشديد في تلك الايام . ومما هو جدير بالذكر ان هذه المقالة التي هي الاخيرة في المجموعة المذكورة ، هي كذلك الاخيرة من نوعها في آثاره الادبية .

لم يقف الريحاني في عمله بعد سنة ١٩١٠ بل استمر يكتب المقالات واكثرها قصيرة في مواضيع شتى . ثم عاد في سنة ١٩١٢ الى اللغة الانكليزية فالف « كتاب خالد » المطبوع في نيويورك . وهذا الكتاب هو شبه قصة — نصفه قصة ونصفه قصيدة . اما الموضوع فهو الذي طالما ازعجه ومحوره الثورة الروحية والمثل الاعلى في الحياة الشخصية الشرقية والغربية .

وفي ايام الحرب العظمى كان الريحاني في اميركة وقد سعى سعيا مبرورا ، قولا وعملا ، في سبيل المنكوبين ابناء وطنه الذين كانوا يموتون جوعا في لبنان ، من جراء الاحوال التي اوجدتها الحكومة التركية.

ليس لكاتب كالريحاني في آداب الشعوب الاوروبية شهرة تتجاوز الحدود العادية . واما في الاداب العربية العصرية ، التي يرجع عهدها الى نحو مئة سنة مضت ، فان له الشخصية البارزة ، وان اسمه ليقرن في التاريخ بابتكاره اسلوبا معلوما خاصا به . ومن مزاياه انه متوسع في ادبه توسعا يخرج به الى حدود المسائل العالمية . وبعبارة اخرى انه حاول ان يربط المتناقضين المتضادين ، الشرق والغرب ، على انه اخفق في هذا السعي . وانه لسعي ، على ما اظن ، غير موفق ، ايا كان صاحبه الريحاني او سواه من الادباء . ذلك هو السبب في القنوط الذي يعرفه حق المعرفة ابناء القرن العشرين .

— تتمة المنشور على الصفحة ٧٥ —

كتاب ضروري لكل بيت

***

قال احد المحامين يوما ، وهو خارج من المحكمة : شروط الاجرام ثلاثة : المعرفة ، والارادة ، والتنفيذ . فمن لا يعرف ليس مجرما ، حتى لو اراد ونفذ ...

وكم من الطيبين ، الشرفاء ، اجرموا وخسروا كل شيء لانهم لا يعرفون ان ما اقدموا عليه جريمة ... لانهم يجهلون علاقة المواطن بالدولة ، وما على المواطن من الواجبات ، وما له من الحقوق . وقد تنبه المحامي اللامع ، الاستاذ جوزف باسيلا ، الى الخطر الناجم عن هذا الجهل في حياتنا الاجتماعية ، فبادر الى وضع كتابه : « المواطن والدولة في نص الدستور وروحه » ليعصم اللبنانيين من الزلل ، ويفتح عيونهم على ما لا يجوز ان يجهله احد . فاطلب هذا الكتاب الضروري لكل بيت ، من « دار المكشوف » ، بيروت، ص.ب. : ٥٨١ ، تلفون ٢٢٤٧٧٠ .

امين الريحاني

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٨ ـ

لا اظن ان بين كتاب العرب المعاصرين كاتبا آخر يستطيع القراء الاوروبيون ان يفهموه فهمهم للريحاني . ولكن في العالم العربي نفر من القراء ، اولئك المتمسكين بالقديم ، لا يفهمون الريحاني ذا الشخصية البارزة والروح المثناة التي يفقهها الافرنج . ذلك لانهم يعتقدون ان السداد في آرائهم ، وانهم ، على ميل فيهم للتحكم والارشاد ، فوق غيرهم . ولا يستطيع الناقدون العرب ان يدركوا ما ادركه الريحاني وهو ان الغرب في الاداب العربيّة عنصر حي حيوي ، وسيكون له في رقيها القسط الاوفر او المعادل في الاقل للعنصر الوطني .

وللريحاني ، فوق ذلك ، فضل لا ينكر في انه ابطل عادة الاقتداء بالغرب ، ذلك الاقتداء المطلق الظاهر في كل دور من ادوار الادب العربي الجديد ، ابطله الريحاني في انتقاده الغرب انتقادا صحيحا عادلا . وهذه المزية في ادبه هي بنت المهاجرة ، والمهاجرة هي من العوامل القوية في ازدهار الاداب العربية في الربع الاخير من القرن الماضي .

ومما يجب ذكره خصوصا هو ان لبعض العوامل الظاهرة تأثيرا كبيرا في تبلور الاداب العربية في القرن التاسع عشر . وقد يصعب علينا ان نقول في اية سنة تولدت هذه الحركة الفكرية . ولكن العاملين الاكبرين هما البعثة العلمية الافرنسية الى مصر في اخر القرن الثامن عشر والارساليات الدينية المختلفة في سورية في اوائل القرن التاسع عشر فان فيهما مصدر الحركة الفكرية في مصر وسورية ، تلك الحركة التي رفعت القطرين الشقيقين الى المقام الاول في الاداب العربية العصرية فكانا ولا يزالان حتى يومنا ، الينبوع الاغزر للعلوم والاداب .

اما القطر المصري فقد اتبع اولا التقاليد الافرنسية في الادب ثم عدل عنها الى التقاليد الانكليزية ، وذلك منذ العقد التاسع من القرن الماضي . واما القطر السوري فقد انتشر فيه اولا النفوذ الايطالي القصير الاجل ثم حل محله النفوذ الافرنسي والنفوذ الانكليزي معا فظلا سائدين معا حتى سنة ١٩١٤ . اننا لذلك نشاهد في هذين القطرين ، في المدرسة وفي الحياة ، من النظريات الخاصة ما لا تتفق والمذاهب المأخوذة ، وما لا يدرك جوهرها الاصلي . فاذا كان هناك داروينيي مثلا كشبلي شميل فانه يظل داروينيا طيلة حياته ومؤمنا بالعقيدة الداروينية اكثر من صاحبها . كذلك قل في سليم قبعين مترجم مؤلفات طولستوي ، فانه كان يحلم بان يمكث على الدوام في المزرعة التولستوية . واما قاسم امين « محرر المرأة » فانه يرى ان استعباد المرأة هو السبب الاوحد في انحطاط الشرق فجاهد من اجلها ذلك الجهاد المستمر المطلق الذي لايعرف غير ناحية من الحقيقة ولا يقبل الهوادة فيها.

اما ازدهار الاداب العربية العصرية بعد العقد الخامس من القرن الماضي فهو يرتبط بالمهاجرة من سورية ارتباطا شديدا . وقد كانت هذه المهاجرة اولا الى القطر المصري القريب ، القطر الشقيق ، حيث لم تكن المراقبة ، ونورت حرية الفكر هناك ، وريشت الصحافة فنمت ، نضرة قوية ، وهي لا تزال كذلك حتى هذه الايام .

اما المهاجرة الى اوروبا فقد كانت على الغالب فرديـة خصوصية بخلاف المهاجرة الى مصر . ومع ذلك فقد نبغ بفضلها افراد يشار اليهم بالبنان . فمنهم رزق الله حسون الذي زار روسية في العقد الثامن من القرن الماضي ، وترجم مؤلفات كريلوف «(١)» الى اللغة العربية . وقد توفي هذا النابغة العربي في لندن بعد ان قضى حياته مضطربة لانتقاده الحكومة التركية انتقادا مرا . وكانت وفاته من سم دسه له احد المقربين من السلطان العثماني . وقد قال قبيل وفاته هذين البيتين :

قد قضى الله ان اموت غريبا ... في بلاد دعيت قسرا اليها
وبصدري مخبئات معان ... انزلت آية الحجاب عليها

اما المهاجرة الى اميريكة التي ازدادت في العقد التاسع من القرن الماضي ، فمن الصعب ان نحكم الان على مقدار تأثيرها في الاداب العربية الجديدة . على انه لا يقل اهمية عن تأثير المهاجرة الى مصر . في اميريكة تولدت الصيغ الجديدة ، ونشأ الادب المستحدث الذي جهله العرب الاقدمون ، ادب التهكم والمجون ، هو ادب لذيذ المعنى ، خفيف الروح ، كتب بلغة عامة لم تستعمل في ما قبل الا نادرا ، اللهم اذا استثنينا ما ظهر منه ، وهو قليل ، في القطر المصري . فمخائيل واسعد رستم ـ الاب والابن ـ وشكري الخوري مبتكرون في هذه الطريقة ولهم من المقالات والقطع ما لذ وطاب معنى وشكلا .

واني اخص بالذكر شكري الخوري الذي هاجر الى البرازيل . فهو يمثل لنا في قالب الحوار حياة الفلاح اللبناني في بلاد العجائب وشقاءه هناك . وان تصويره لهذا المسكين ، وما في تلك الصورة من الترهات التي يولدها خبره للحياة الاميركية المختلفة كل الاختلاف عن الحياة في لبنان ، انها لصورة مضحكة بل انها لصورة تدمي القلب الما وتستذرف الدموع . وهناك كاتب اخر قريب في الروح من الريحاني هو جبران خليل جبران الذي يعطينا الامثلة البينة الباهرة في تأثير الحياة الاميركية على نظريات الكاتب العربي البسيطة ، فتبدل فيها ، وتغير اشكالها ، وتقلبها ظهرا لبطن . وقد حمل هذا الكاتب المتفنن على الحياة الاميركية والاوروبية حملات شعواء .

بناء على ذلك نقول ان كل من له علم بالحياة العربية ، فيفهمها من نواحيها الخاصة والعامة ، يرتأى ولا ريب رأينا في ان اميريكة هي التي اوجدت رجلا كثير التفكر والتأمل كالريحاني ، ذلك الرجل المطلق من قيود التقاليد الشرقية والغربية .

وقد اطلق الريحاني نفسه من تلك القيود فنبذ سلطان اولي السيادة

(١) كريلوف كاتب من كتاب الروس الشهيرين له قصص وامثال شبيهة بقصص لافونتين .

الكامل في التاريخ

لابن الأثير

يصدر باشراف لجنة من المحققين

صدر منه :

المجلد الاول
المجلد الثاني
المجلد الثالث
المجلد الرابع
المجلد الخامس
المجلد السادس

الناشر : دار صادر ـ دار بيروت

سواء اكانوا من قومه او من غير قومه ، وشرع ينتقد ويغربل ما في المدنيتين الشرقية والغربية من السيئات والحسنات .

اجل قد ادرك الريحاني سر الحياة الاميركية . على انه من الخطأ ان نعده من الغربيين . فهو عربي صميم ، بل هو سوري وابن جبل لبنان . وان لوطنه هذا المقام الاول في جميع افكاره ، وامياله واطواره. اما البلاد العربية الاخرى فاذا جاء ذكرها في مقالاته فذلك نادر وبعبارة اخرى هي غالبا غامضة كانه يتكلم عن الهند او الصين (1) .

الى لبنان تتجه افكاره واحلامه حيثما كان ، وهو القائل : ان في لبنان قلبي . فلا عجب اذا كان يستطيع ان يصور بيئة لبنان القريب الى قلبه بتلك السهولة العجيبة ـ وفي بعض الاحيان بجرة قلم واحدة . خذ الشقاق الديني مثلا الذي لا حد له هناك فهو يتمثل امامنا في مقالات الريحاني العديدة كما هو صورة طبق الاصل . وكذلك اقواله في الموظفين الخاملين الكسالى « الذين يدخنون » ساعة اشغالهم وقلما يفتكرون ـ وفي عبيد التقاليد والعادات وخزعبلات « الرسميات » التي يتمسكون بها حتى في اشد ايام الضيق . ان في هذا النوع من اديه الما نفسيا يمازجه حب اشد منه هو في الحقيقة الباعث له . ولا يخف الاثنان ـ الالم والحب ـ حتى في ساعة الاجتهاد والتصنع كما يظهر في صفحة كتبها عن بيروت . وفي هذه الكلمة تتجلى مقدرته في الانشاء العربي .

احب الريحاني الطبيعة حبا متناهيا بل حبا يدنو من العبادة . ولست اعرف كاتبا عربيا اخر نشأت فيه هذه العاطفة للطبيعة ونمت نموها في الريحاني . حقا انه لامر غريب كيف ان ابناء هذه الامة القريبة من الطبيعة لا يعرفون هذا الحب ولا نمت في قلوبهم هذه العاطفة . ان في شعرهم القديم وصفا دقيقا فوتوغرافيا لما كانوا يشاهدون ولكنهم لم يظفروا بشيء من السر في ادراك كنه الطبيعة وفي العاطفة لها .

ومن الغريب ايضا ان نوعا من انواع الادب المعروفة الشائعة ، اي النوع البسيكولوجي (1) في الوصف والمقابلة يكاد يكون غير معروف في الشعر العربي ولا يستعمل الا نادرا . مع انه من المزايا الشعرية عند اكثر الشعوب القديمة . ولكنه لم يعرف حتى في الشعر الاوروبي الا في العهد الحديث . اما الكتاب العرب فقلما تجد في كتبهم صورة متقنة لمشهد طبيعي . هو نقص في ادابهم ، ولا يزال حتى اليوم . ولا نجد في مؤلفات جرجي زيدان ، القصصي العصري الكبير صورة للطبيعة متممة . ان هناك خطوطا واهية ضئيلة لا تكاد تكفي لادراك ما تشير اليه.

اننا والحال هذا لنعجب جدا بعزية الريحاني الطبيعية ـ بتغلغله في قلب الطبيعة ، بادراكه اسرارها ، بحبه الروحي لها . وان هذه العاطفة الفريدة تتخلل مقالاته وقطعه كلها حتى انك لتجدها ولو عرضا في مقالته « من على جسر بروكلين » فالشعر والطبيعة في نظره واحد لا فاصل بينهما (راجع مقالة ابن سهل الاندلسي) والطبيعة تضع على لوحته في بعض الاحايين الوانا قاتمة فتولد تلك العواطف المرة الحادة (راجع الرداء الاسود) وقد تظهر هذه العاطفة في مظهر شديد جميل حتى في شدته وذلك عندما تلامس روحه المتألمة قلب امه الطبيعة (داويني ربة الوادي) فتتجدد قواه ويستأنف العمل . وانه في هذه الحال لمبدع في تلك القطع والقصائد النثرية التي تعصى المترجم ، فقلما يتمكن من نقل جمالها العجيب المدهش الى لغة اجنبية .

لست آخذا على عاتقي وصف براعة الريحاني الادبية بكاملها فلا اقف لذلك حتى عند اطرافها كلها . انما قصدي ان اقدم الى محبي الادا بالاجنبية هذه الترجمة لبعض مقالاته واشعاره فيدركون منها منزلة الريحاني بين ممثلي الادب العربية العصريين . علي اذن ان اقول كلمة وجيزة في هذه القطع والمقالات .

اما مؤلفات الريحاني الكبيرة فهي التي طبعت باللغة الانكليزية . وما نصيب اللغة العربية غير المقالات والخطب الكثيرة التي لا تمتاز شكلا بعضها عن بعض .واهم هذه المقالات والخطب طبع في مجلدين سنة ١٩١٠ كما قلت وعددها نحو خمسين وقد ترجمت منها الى اللغة الروسية وطبعت لاول مرة ما يقرب من خمسها .

وللريحاني شذرات عنوانها « بذور للزارعين » تختلف في مواضيعها وقطعها منها ما هي افكار له طيارة ، ومنها ما هو رؤوس اقلام لمقالات يكتبها في المستقبل . واني اعرف في الادب العربي الجديد مجموعة اخرى شبيهة بمجموعة الريحاني هي : « اقوال قاسم امين » وقد طبعت بعد موته . اما الفرق بين الاثنتين فهو انه في الاولى تتجلى بنوع خاص شخصية الكاتب وفي الثانية تبدو غالبا شخصية الهيئة الاجتماعية . فاذا شئت ان تعرف ابناء العرب في هذا العصر فـ « الاقوال » تفضل على « البذور » .

اما في الشعر المنثور فقد اوجد الريحاني موردا جديدا للادب العربي لم يكن معروفا من قبل . والعجيب انه لم يكن معروفا ، وهو في ادابنا الروسية عادي ، نعرفه جد المعرفة منذ الصغر . وما السبب غير القيود في الشعر العربي . فالمحافظة على الاوزان والقوافي والاشكال والبحور المقررة هي من اهم الواجبات الادبية ومن اشد التقاليد . وان ادباء العرب اجمالا لمقتنعون كل الاقتناع انه يصعب نظم الشعر بغير الشكل الذي ينحصر في الوزن والقافية .

وقد اخذ الريحاني الشكل المنثور في الشعر عن الشاعر الاميركي ويتمان ، الذي يصفه باستاذ هذه الطريقة وامامها . اما نحن في روسة فاننا نعرف اكثر معرفة شاعرنا الشهير تورجينيف (1) في ما كتبه قديما بعنوان : «سنيليا» .

على اننا اذا انعمنا النظر في الادب العربية القديمة نرى انها لا تخلو من هذا الشكل الشعري كما يتضح من مراجعة بعض الصور القرآنية وان يكن شكلها غير هذا الشكل الشعري الذي هو الان موضوع بحثنا .

قلت في ما تقدم انه يصعب ترجمة اشعار الريحاني المنثورة، في قالبها الاصلي ، الى اية لغة اجنبية كانت . فهي تقسم الى مقاطع كبيرة او صغيرة ، لها قوافٍ محدودة ومتنوعة ، ومنها ما ليس فيه غير القافية

(1) هذا في تلك الايام . ولكن الريحاني بعد رحلته الشهيرة في البلاد العربية (١٩٢٢ ـ ١٩٢٣) كتب كتابه « ملوك العرب » و «تاريخ نجد الحديث » وكتاب « ابن سعود وشعبه وبلاده » باللغة الانكليزية ، وكان المستشرقون في مقدمة المعجبين بها كلها .

(1) مثال ذلك ما في « تشييد الاثقال » من الوصف في التشبيه. فقد وصف سليمان الطبيعة مشبها اياها بحبيبته فجاء المشبه مختصرا والمشبه به ـ اي الطبيعة في فلسطين ولبنان ـ على شيء من الاسهاب ـ « شعرك كقطيع ماعز رابض على جلعاد . اسنانك كقطيع نعاج صادرة من الغسل ... عنقك كبرج داود المبني للاسلحة الخ.» .

مكتبة عبد القيوم

زوروا مكتبة عبد القيوم ببورتسودان تجدوا احدث المطبوعات العربية ، وكذلك مجلة الاداب البيروتية ومنشورات دار الاداب .

(1) ايفان تورجنيف ولد سنة ١٨١٨ وتوفي سنة ١٨٨٣ ومن اهم مؤلفاته التي ترجمت الى اكثر اللغات الاوروبية وحتى الى الصينية واليابانية « الحب الاول » و « مذكرات الصياد » و « الاباء والابناء » و « الاراضي البكر » وغيرها . وفي الروايتين الاخيرتين تمثل لاول مرة في الادب الروسي حياة النهليسيات الاولين .

الواحدة التي تظهر في بعض السطور ولا تظهر في غيرها كما أنها لا تكرر في المقاطع الاخرى . والريحاني يلتزم في بعض اشعاره لازمات تكرر بين المقاطع مع شيء من التغيير فيها ، لذلك لم تكن ترجمتي لاشعاره غير نقل بسيط قصدت فيه تتبع الافكار دون القوالب والاشكال .

اما لغة الريحاني فليست مما يستحسنه الناقدون العرب . والكثيرون منهم يشجبون شذوذه الظاهر بالاجمال وخضوعه لطرق التعبير الاوروبية بوجه خاص . ولا ريب ان انشاءه يبدو احيانا كأنه ترجمة حرفية عن لغة اجنبية . وهذا ما يحملنا على الظن ان الريحاني يفكر في بعض الاحايين بلغة غير لغته الوطنية ، الامر الذي لا يستغرب في كاتب الف مؤلفاته الاولى باللغة الانكليزية . على اننا نرى في مقالاته الاخيرة تقدما في اللغة وتحسينا في الانشاء اذا ما قابلناها بمقالاته الاولى ، مما يدل على انه كان ولا يزال يسعى في تحسين لغته والتوصل فيها الى درجة الكمال ومع ذلك فان المحافظين المتمسكين بالقديم من القياسات اللغوية يرون النقص في كل ما يخالف اراءهم واحكامهم ، وينعتون بالركاكة كل ما يخل بالقواعد المرعية منذ القدم وان كل ما ينتقدونه هو صحيح سليم للنمو والارتقاء . اذكر ان احد اولئك المحافظين المتعنتين قال انه وجد في رواية من روايات جرجي زيدان القصصي المشهور مئة غلطة فلو اخذ ناقدنا هذا بعض قطع الريحاني لوجد فيها حسب قياسه الف غلطة وغلطة . ولكن هذا النقد السطحي لا يضير هذين الكاتبين ولا ينفي كونهما من ابرع ممثلي الاداب العربية الجديدة .

وليست اللغة العربية فقيرة او ضعيفة الى الحد الذي ترى فيه ان اعتزالها اللغات الحية خير لكرامتها ، فتتقيد بالصيغ والاساليب القديمة الى الابد . ليس في التطور ما يخيف ، وليس في التجدد ما يحط من كيانها وهي المشهود لها بالسعة والقوة والغنى .

خلاصة القول ان للغة الريحاني ما لا يجوز انننكره من محاسن الانشاء . ان لها منزلة سامية . ومن مزاياها الخصوصية الجمة انها لغة بسيطة مرنة شفافة تتتابع جملها بخفة ورشاقة ، ولا تتراكم بعضها فوق بعض كما هو الحال غالبا عند غيره من الكتاب . فاذا قابلنا مقالات الريحاني بمقالات غيره من المعاصرين تجلت لنا تلك المحاسن خصوصا الطلاوة منها والرشاقة وبراعة الاسلوب . زد على ذلك انها خالية من السجع الثقيل ومن الالفاظ والتعابير اللغوية القديمة التي يصعب فهمها بدون معجم ، والتي يفاخر بها المفاخرون من بعض ادباء العرب حتى في هذه الايام .

وقد تهكم الريحاني مرة على هذه الطريقة العقيمة في انه قلدها ليظهر للناس سيئاتها . وذلك في خطبة القاها في جمعية بصيدا استهلها بفقرة كلها الفاظ حوشية عويصة تحقيقا لرغبة كاتب الجمعية الذي طلب منه خطبة « لم تفتق رتق سمع » ولم يخطب مثلها في جمع ». وكل من يقرأ الاستهلال لتلك الخطبة يدرك وهو يبتسم أسرار التفوق باللغة في نظر الاقدمين والمحافظين .

انه ليصعب علينا ان نقدر اجمالا ادب اي كان من الادباء بناء على ترجمة مؤلفاته . واذا كان الامر كذلك فالحكم يستحيل في ادب من يمثل ادابا مجهولة لدى القراء . انما قصدي في هذه المقدمة الوجيزة تعريف الريحاني كما يتراءى لي شخصيا في تاريخ الاداب العربية الجديدة . والنتيجة التي اتصلت اليها في التعريف هي انه يجدر بكل امرىء متمدن ان يعرف الريحاني الذي هو اخونا في الانسانية ، وان كان مقيما في بلاد قصية . فاذا رأى القارىء اني غير مصيب في استنتاجي ، او ان الاستنتاج لا يلتئم ومبدأه الادبي ، او ان « السمكة لا تستحق هذه الصلصة » ، او ان كلمتي هذه هي ضرب من المحاباة لمترجم اختصاصي غرضه الوحيد ان يلفت نظر القارىء الى موضوع اشغاله الخاصة ، فحسبي اني اقتديت بالريحاني في كلمته المأثورة : « قل كلمتك وامش » .

اغناتيوس كراتشكوفسكي

مكتبة انطوان

الفرع الفرنسي – شارع الحويك

يسرها ان تقدم للقراء والادباء العرب

آخر ما وصلها من المؤلفات الفرنسية :

***

LA CHAMADE
FRANÇOISE SAGAN

DRAME
PHILIPPE SOLLERS

LE FAISEUR DES REVES
M. DEL COSTILLO

LES SAISONS
MAURICE PONS

LA LUNE ET LES FEUX
CESARE PAVESE

LES CHARMES
PIERRE GASCAR

LE PRESIDENT EST MORT

LES CAS DE CONSCIENCE DE L'AVOCAT ISORNI